

أضواء البيان

@ 172 @ فأخلصوا العبادة والدعاء له وحده في ذلك الحين الذي أحاط بهم فيه هول البحر ، فإذا نجاهم الله وفرج عنهم ، ووصلوا البر رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر . كما قال تعالى : { فَلَا مَسَّ لَكُمْ مِنَ الْيَمِّ الْيَمِينِ وَلَا مِنَ الْيَمِّ الْشَّامِلِ الْأَيْمَنِ إِذْ أَنْتُمْ عَلَى الْفُلِ وَأَنْتُمْ بِلَهُ الْفُلِ مَخْطَوْنَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } . .

وهذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة أوضحه الله جل وعلا في آيات كثيرة . كقوله : { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَّيْنَهُ مِنْهُمُ بَرِّيْحٌ طَائِفَةٌ لِيَصْطَبِطُوا فِي الْبَارِئِ فَجَاءَ تَهْلُوكَ بِهِمُ الْغُلُوكَ وَجَاءَ غَمٌّ أُحْيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَأَن نُّجِّيَهُمْ مِنْ هَٰذَا وَلَا تَذَكَّرُونَ } . . من الشَّاكِرِينَ فَلَا مَسَّ أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَدْعُونَ فِي الْآسِ رِضٍ يَغْفِرُ الْخَطِيئَةَ { ، وقوله : { قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتٍ الْيَمِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذَا لَنَذْكُرَنَّكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِّنْ كُلِّ مَوْجٍ وَكَيْفَ تَدْعُونَ اللَّهَ تَدْعُوهُ إِذْ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ } ، وقوله : { وَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَا مَسَّ لَكُمْ مِنْهُ وَلَا مِنْ يَمِّ الْيَمِينِ } . . وقوله : { وَإِذَا غَشِيَهمُ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَا مَسَّ لَكُمْ مِنْهُ وَلَا مِنَ الْيَمِّ الْيَمِينِ } . . وقوله : { وَمَقَّتْ صُدُوقَهُمْ وَجَعَدُوا بِأَيِّاتِنَا إِلَّا لَاحِقٌ كُلٌّ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } . . وقوله : { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّلَّذِي ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ } ، إلى غير ذلك من الآيات كما قدمنا إيضاحه (في سورة الأنعام) وغيرها . .

ثم إن الله جل وعلا بين في هذا الموضع الذي نحن بصدده سخافة عقول الكفار ، وأنهم إذا وصلوا إلى البر ونجوا من هول البحر رجعوا إلى كفرهم آمنين عذاب الله . مع أنه قادر على إهلاكهم بعد وصولهم إلى البر ، بأن يخسف بهم جانب البر الذي يلي البحر فتبتلعهم الأرض ، أو يرسل عليهم حجارة من السماء فتهلكهم ، أو يعيدهم مرة أخرى في البحر فتغرقهم أمواجه المتلاطمة . كما قال هنا منكراً عليهم أمنهم وكفرهم بعد وصول البر { أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ

يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الدِّرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا { وهو المطر أو
الريح اللذين فيهما الحجارة } قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ
{ أي بسبب كفركم . فالباء سببية ، وما مصدرية . والقاصف : ريح البحار الشديدة التي
تكسر المراكب وغيرها . ومنه قول أبي تمام : قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم
بِمَا كَفَرْتُمْ { أي بسبب كفركم . فالباء سببية ، وما مصدرية . والقاصف : ريح البحار
الشديدة التي تكسر المراكب وغيرها . ومنه قول أبي تمام : % (إن الرياح إذا ما أعصفت
قصفت % عيدان نجد ولا يعبان بالرم) % .
يعني : إذا ما هبت بشدة كسرت عيدان شجر نجد رتماً كان أو غيره .